الجزء السادس عشر — سورة مريم

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢)
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

٣٠٥

سورة مريم

معاني الكلمات :

كهيعص : من الحروف التي يتكون منها القرآن .

وهن : ضعف .

اشتعل : فشا وانتشر .

شقيا : خائبا في وقت ما .

رضيا : مرضيا عندك قولا وفعلا .

عتيا : حالة لا سبيل إلى مداواتها .

سويا : سليما لا خرس بك ولا مرض .

أوحى : أشار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة زكريا عليه السلام.

٢ ـ أن نعلم أن الدعاء كلما كان سرا بين العبد وربه كان أقرب إلى القبول .

٣ ـ أن نتعلم أن يبحث عن الأسباب ، فطلب معرفة السبب الذى يتأتى به الفعل غير قادح فى صاحبه .

المحتوى التربوى :

هذه الأحرف المتقطعة التى تبدأ بها بعض السور نماذج من الحروف التى يتألف منها هذا القرآن ، وسياق السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية ، والقصص مادة هذه السورة تبدأ القصة الأولى ، قصة زكريا . وتبدأ القصة بمشهد الدعاء ، دعاء زكريا لربه فى ضراعة وفى خفية وهو يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم ، فى عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه فى قرب واتصال ، بلا واسطة حتى ولا حرف النداء .

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظم واشتعال الرأس كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذى يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه ، ثم يعقب عليه معترفا بأن الله قد عوده أن يستجيب له إذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو فى فتوته وقوته ، فما أحوجه

الآن فى هرمه وكبره أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه ، وذكر ما يخشاه فهو يخشى من بعده ، يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه ، وتراثه هو دعوته التى يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بنى إسرائيل ـ وأهله الذين يرعاهم ، وماله الذى يحسن تدبيره وإنفاقه فى وجهه ، وهو يخشى الموالى من وائه على هذا التراث كله ، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته ، ولم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لورثته وخلافته ، وما يطلبه فهو الولى الصالح الذى يحسن الوراثة .

ولا ينسى زكريا ﷺ أن يصور أمله فى ذلك الوريث الذى يرجوه فى كبرته وهو : أن يكون مرضيا عندك ، وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه لا جبارًا ولا غليظا ، ولا متبطرًا ولا طموعا ، ذلك دعاء زكريا ﷺ فى ضراعة وخفية ، ثم ترتسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضا ، فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى ويعجل له البشرى ، ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذى بشره به وهم اسم فذ مسبوق .

وقال القاسمى : « سورة مريم سميت بها لاشتمالها على نبئها الخارق ، **وقال المهايمى** : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت ، وتظهر له الكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ، وهى مكية النزول ، واستثنى بعضهم منها آية الأولى السجدة والآية الثانية : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ .

وقد روى محمد بن إسحق : فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب ﷺ قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه وآياتها ثمانون وتسعون » .

يقول صاحب الظلال : « إنه فيض الكريم غدقه على عبده الذى دعاه فى ضراعة ، وناجاه فى خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو ، والذى دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالى من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال ، والقيام على الأهل بما يرضى الله ، وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه » .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله ، وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذى يواجهه ليطمئن قلبه ، وهى حالة نفسية طبيعية فى مثل موقف زكريا النبى الصالح الإنسان الذى لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله .

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل ، ويذكر بمثل قريب فى نفسه : فى خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن ، وهو مثل لكل حى ولكل شىء فى هذا الوجود ، وليس فى الخلق هين وصعب على الله ، وسيلة الخلق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن فيكون .

والله هو الذى جعل العاقر لا تلد ، وجعل الشيخ الفانى لا ينسل ، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل ، وهو أهون فى اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء ، وإن كان كل شىء هينا على القدرة : إعادة وإنشاء .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : لِمَ طلب أولا وهو وامرأته على صفة الفنىّ والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب ؟ قلت: ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخرا ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنى عن الأسباب ».

وقال أبو السعود « إنما قاله ﷺ ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران ، استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها ، واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا ، وفضله مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعادا له » .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا ﷺ على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلا ، فأعطاه الله تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة ، ويؤدى بها حق الشكر لله الذى وهبه على الكبر غلاما ، وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوىّ معا فى جوارحه ، لم يصب لسانه عوج ولا آفة .

وكان ذلك ؛ فخرج على قومه من المحراب الذى بشر فيه بالولد ، فأشار إليهم إشارة خفية سريعة أن يسبحوا فى الغداة والعشى موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرا لله على ما أولاه ؛ ذلك ليعيشوا فى مثل الجو الذى يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

يقول صاحب الأساس : « قصة زكريا تمهيدٌ للحدث الكبير حدث قصة مريم ، ولكنها مقدمة علمتنا الكثير : علمتنا كيف يحرص الرسول على استمرار الهدى ، وعلمتنا أن الجيل اللاحق قد ينحرف فيحتاج إلى نبى جديد ، وبعد محمد ﷺ لا نبوة ولكنه التجديد » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ استحباب الخضوع فى الدعاء وإظهار الذلة والمسكنة والتوسل إلى الله بنعمه فيه ، وأن يكون سرا بين العبد وربه .

٢ ـ الخوف على تراث العقيدة ودين الله سمة الصالحين .

٣ ـ ليس فى الخلق هين وصعب على الله .

٤ ـ ضرورة الحرص على شكر الله ـ تعالى ـ على نعمه .

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢
وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ
وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ
مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا
فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ
مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ
بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ
قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣
فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤
وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥

٣٠٦

معانى الكلمات :

الكتاب : التوراة .

بقوة : بجد وعزم .

زكاة : بركة أو طهارة .

انتبذت : اعتزلت وانفردت .

روحنا : جبريل عليه السلام .

تمثل : تصور .

بغيا : فاجرة تطلب الشهوة من أى رجل كان .

سريا : نهرا صغيرا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم كيف ينبغى أن يؤخذ الكتاب .

٢ ـ أن نتعلم كيف تكون خصائص وأخلاق الأنبياء والصالحين .

٣ ـ أن نتعرف على حرية المشيئة الإلهية ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس .

المحتوى التربوى :

يترك السياق زكريا فى صمته وتسبيحه ، ويسدل عليه الستار فى هذا المشهد ويطوى صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى ، يناديه ربه من الملأ الأعلى ، فلقد ولد يحيى وترعرع وصار صبيا .

ويبدأ النداء العلوى ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة ؛ لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم ، يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لزكريا فى أن يجعل له من ذريته وليا ، يحسن الخلافة بعده فى العقيدة وفى العشيرة ، فها هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى ، أمانة الرسالة وقد ورث أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء ، وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ، ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة .

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى : آتاه الحكمة صبيا فكان فذا فى زاده ، كما كان فذا فى اسمه وفى ميلاده ، فالحكمة تأتى متأخرة ، ولكن يحيى قد زود بها صبيا ، وآتاه الحنان والحنان صفة ضرورية للنبى المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير فى رفق ، وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهرها ويزكيها ، وكان موصولا بالله متحرجا معه مراقبا له ؛ يخشاه ويستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه ، ذلك هو الزاد الذى آتاه الله يحيى فى صباه ، ليخلف آباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا ، فاستجاب له ربه ووهب له غلاما زكيا .

وينتقل السياق إلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى ، إنها قصة ميلاد عيسى ، وقد تدرج السياق من القصة الأولى ، ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ، وهى أعجب وأغرب .

والقرآن فى هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويبرز دلالتها الحقيقية ، ويخرج القصة فى مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والانفعالات ، التى تهز من يقرؤها هزاً كأنما يشهدها.

ويأتى المشهد الأول ليصور: فتاة عذراء قديسة ، وهبتها أمها فى بطنها لخدمة المعبد ، لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة ، وها هى ذى تخلو إلى نفسها بشأن من شؤونها التى تقتضى التوارى من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم ، وهى فى خلوتها مطمئنة إلى انفرادها ، ولكن ها هى ذى تفاجأ مفاجأة عينية ؛ إنه رجل مكتمل سوى .

وها هى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان الخالى ، وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل ، وهذا الرجل السوى ـ الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما ، وهما فى خلوة وهذه هى الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها ، فتسأل فى صراحة : كيف ؟ هكذا فى صراحة ، وبالألفاظ المكشوفة ، فهى والرجل فى خلوة ، وما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاما ؟ وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها بأنه رسول ربها ، ولا أنه مرسل ليهب لها غلاما طاهرا غير مدنس المولد ولا مدنس السيرة ؛ ليطمئن بالها، لا فالحياء هنا لا يجدى، والصراحة أولى ..كيف؟ وهى عذراء لم يمسسها بشر ، وما هى بغى فتقبل الفعلة التى تجىء منها بغلام .

والروح يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا هين عليه ، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبنى إسرائيل أولا وللبشرية جميعا، وبذلك انتهى الحوار وتحقق وقوع الغلام .

وقال الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وقد كانت مريم العذراء البتول فى كربين :

الكرب الأول : احتملته ورضيته بحكم الفطرة وهو كره الولادة .

الكرب الثانى : العار الذى زعمته ويستقبلها ؛ فإنها البرئية الطاهرة تستقبل اتهاما وهى البريئة وذلك عبؤه على البرىء ثقيل؛ ولذا قالت: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ » .

ثم تمضى القصة فى مشهد جديد فتعرض هذه العذراء الحائرة فى موقف آخر أشد هولا ، وهذه هى الهزة الثالثة ، والسياق لم يذكر كيف حملته ولا كم حملته ، هل كان حملا عاديا ، أم اختصرت مراحله اختصارا ، ليس فى النص ما يدل على إحدى الحالتين فلا يجرى طويلا وراء تحقيق القصة التى لا سند لنا فيها ، ولنشهد مريم وهى وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ، ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية ، تواجه المخاض الذى جاءها إلى جذع النخلة ، واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها ، وهى وحيدة فريدة تعانى حيرة العذراء فى أول مخاض ، ولا علم لها بشىء ولا معين لها فى شىء .

وإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها وهى تتمنى لو كانت لم تخلق ولم تك شيئا ، وفى حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى ؛ طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها ، يطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ، ويدلها على حجتها وبرهانها ، ويقول لها : لا تحزنى ، فلم ينسك ربك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت قدميك جدولًا ساريا ـ الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من سيل ما فى الجبل ، وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا فهذا طعام وذاك شراب والطعام الحلو مناسب للنفساء ، والرطب والتمر من أجود طعام النفساء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإيجابية فى اتباع تعاليم الدين والدعوة إليه .

٢ ـ التقوى والرقة والطهارة والعفة من الوسائل التى تعين على تبليغ الدعوة .

٣ ـ اللجوء إلى الله عند الشدة والتوكل عليه يحمى المؤمنين من الفزع والشدائد .

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ
ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

٣٠٧

معانى الكلمات :

قرى : طيبى .

صوما : صمتا .

المهد : الفراش .

مباركا : كثير النفع .

يمترون : يشكون أو يختلفون .

قضى : أراد .

الأحزاب : الفرق .

مبين : ظاهر واضح .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التدابير الإلهية خير للمسلم فى كل الأحوال .

٢ ـ أن نقف على قدرة الله تعالى فى إنطاقه عيسى عليه السلام وهو فى المهد .

٣ ـ أن نؤمن أن عيسى عليه السلام روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن مريم ، وقد جاءها الأمر بتحريك النخلة فتساقط عليها ثمرها الناضج فتأكل منه وتشرب من الماء فتتقوى بذلك على ما هى فيه من آلام الوضع ، ثم طلب منها ألا تتكلم أحدًا ، وإنما تكتفى بالإشارة وانقطعت للعبادة ، ونحسبها قد دهشت طويلا ، وبهتت طويلا ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبا جنيا ، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها ، وإلى أن حجتها معها .. هذا الطفل الذى ينطق فى المهد ، فيكشف عن الخارقة التى جاءت به إليها .

وتأتى بطفلها قومها ولنشهد هذا المشهد المثير ونحن نتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم ـ ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود ـ وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة لله للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة.. يرونها تحمل طفلا ، فتنطلق ألسنتهم بالتقريع والتأنيب فظيعا مستنكرا ، ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير فينادونها يا أخت النبى الذى تولى الهيكل هو وذريته من بعده ، والذى تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل ، فيا للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبينها وذلك الفعل الذى تقارفينه ، وأنت من بيت طيب طاهر ، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك ؟

وعندما وصل التقريع مداه ، وأمسى التأنيب فوق الطاقة والاحتمال أشارت إلى طفلها ، ولك أن تتخيل العجب والغيظ الذى ساورهم ، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ، ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها ، فتصمت ، وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها .

والسياق لا يمهلهم طويلا فى عجبهم وغيظهم ، ولكن ها هى ذى الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى ، فيتكلم عيسى عليه السلام ، ويعلن عبوديته لله ، فليس هو ابنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلها كما تدعى فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة ، ويعلن أن الله جعله نبيا لا ولدًا ولا شريكا ، وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته ، فله إذن حياة محدودة ذات أمد ، وهو يموت ويبعث ، وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ، ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

تأتى هذه العجيبة على لسان ينطق بالحق قويا نفاذا ، يجوب فضاء الجو ، يشرق ويغرب ويصعد إلى السماء ، وألسنة الباطل من حوله لا تملك قوام حركة ولا نزعة حياة ، فالكل مشدوه إلى ما يرى ، مشدود إلى ما يسمع ، أقعده باطله إلى الأرض وعيسى عليه السلام يرفع رأس أمه حتى تطاول السماء أمام قوم قد جروا وراء خبث طويتهم ، فوضعوا رؤوسهم تحت أنقاض باطلهم .

ولا يزيد السياق القرآنى شيئا على هذا المشهد ، لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة ، ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم ، وابنها العجيب ، ولا متى كانت نبوته التى أشار إليها ، ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود فى هذا الموضع ، وحين يصل به الساق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود فى أنسب موضع من السياق بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه فى مولده ، ذلك هو فى حقيقته وذلك واقع نشأته، ذلك هو يقول قول الحق الذى فيه يمترون ويشكون ، يقولها لسانه

ويقولها فالله تعالى عما يقولون علوا كبيرًا ليس من شأنه أن يتخذ ولداً ، والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة ، والله باق لا يخشى فناء ، قادر لا يحتاج معيناً ، والكائنات كلها توجد بكلمة كن ، ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين،وينتهى ما يقوله عيسى ﵇ ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ، فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير .

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب فى أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستنكرًا نابيا فى ظل هذه الحقيقة الناصعة :

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ .

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمعًا من الأساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفًا فاختلفوا فى عيسى اختلافًا شديدًا ، وقال كل فرقة فيه قولاً .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين ، فويل لهم من هذا المشهد فى يوم عظيم ، المشهد الذى يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة فى حضرة الجار الذى أشرك به الكفار .

ثم يأخذ السياق فى التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى فى الدنيا ، وهم فى ذلك المشهد أسمع الناس ، وأبصر الناس ، فما أعجب حالهم إلا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة ، وهم أسمع شىء ، وأبصر شىء يوم يكون السمع والبصر ، وسيلة للخزى ، وإسماعهم ما يكرهون ، وتبصيرهم ما يتقون فى مشهد يوم عظيم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله عز وجل يؤيد أولياءه ، فما عليهم من خوف ولا بأس .

٢ ـ ضرورة البر بالوالدين ، والعطف عليهما ، اعترافا بفضلهما .

٣ ـ كل ما يقدره الله ـ تعالى ـ فلا بد من نفاذه فى الوقت الذى يأذن الله له بالنفاذ فيه ، فيصير شهادة بعد أن غيبا .

٤ ـ الأخذ بالأسباب فريضة إيمانية وضرورة حياتية .

معانى الكلمات :

أنذر : خوّف .

صديقا : مستقيما فى أحواله .

يغنى : ينفع أو يدفع .

عصيا : مستكبرا عن طاعة ربه .

أرجمنَّك : أقتلك .

اهجرنى : اجتنبنى وفارقنى .

حفيا : لطيفا براً .

مخلصا : أخلصه الله واصطفاه .

وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون
﴿٣٩﴾ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴿٤٠﴾ واذكر
في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴿٤١﴾ إذ قال لأبيه يا أبت
لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴿٤٢﴾ يا أبت
إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا
سويا ﴿٤٣﴾ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن
عصيا ﴿٤٤﴾ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن
فتكون للشيطان وليا ﴿٤٥﴾ قال أراغب أنت عن آلهتي
يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ﴿٤٦﴾ قال
سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴿٤٧﴾
وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى
ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴿٤٨﴾ فلما اعتزلهم وما يعبدون
من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴿٤٩﴾
ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴿٥٠﴾
واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ﴿٥١﴾

٣٠٨

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر رهبة الموقف يوم الحسرة والوقوف أمام الله .

٢ ـ أن نتعرف على أسلوب الدعوة المستقيم .

٣ ـ أن نقف على عداوة الشيطان لبنى آدم ، وعصيانه لربه .

٤ ـ أن نتعلم كيف يكون الولاء والبراء فى سبيل العقيدة .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيطلب تخويف المختلفين من اليوم الذى تشتد فيه الحسرات حتى لكأنها اليوم ممحضٌ للحسرة لا شىء فيه سواها ، فهى الغالبة على جوه ، البارزة فيه ، يقول : **أنذرهم هذا اليوم** الذى لا تنفع فيه الحسرات ، وكأنها ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم ، موصول بالغفلة التى هم فيها سادرون ، أنذرهم ذلك اليوم الذى لا شك فيه ، فكل ما على الأرض ، ومن على الأرض عائد إلى الله ، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد .

وتنتهى قصة عيسى ﷺ بما وراءها من تعقيب ،فتليها قصة إبراهيم ، ويصف الله إبراهيم ﷺ بأنه كان صديقا نبيا ، ولفظة صديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق ، وأنه كثير التصديق، وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم .

ويركز السياق على الخطاب الدعوى لإبراهيم ﷺ ، فنلمس اللطف فى إبراهيم وهو يتوجه إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه ، وعلمه إياه ، وهو يتحبب إليه فيخاطبه ﴿ يَتأَبَتِ ﴾ ويسأله ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا ﴾ والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان ، إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى ، وأن يرفعها إلى مقام الإشارات وأسنى ، فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان ، بل إلى ما هو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا ؛ إذا كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام .

قال أبو السعود : « ولقد سلك ﷺ فى دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل ، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل ؛ لئلا يركب متن المكابرة والعناد ، ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد ، حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم ، مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام ، الخالق الرازق ، المحيى المميت ، المثيب المعاقب .

ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة ، وغرض صحيح ، والشىء لو كان حيا مميزا سميعا بصيراً قادراً على النفع والضر، مطيقًا بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكنا ، لا ستنكف العقل السليم عن عبادته ، وإن كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة ، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟ ! » .

ثم ثنى ﷺ بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط وإن كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : عندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه ، ثم ثلث ﷺ بتثبيطه ونهيه عما كان بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن هو عدوك الذى ورطك فى هذه الضلالة ، فأنت إن حققت النظر عابد للشيطان ، ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص، ثم ربع ﷺ بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه ذكر الخوف والمس ، ونكّر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب ، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿ يَتأَبَتِ ﴾ توسلا إليه واستعطافا .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسى ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد : أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؛ وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة ؟ ! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع ، فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلا ، استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة فاحذرنى واتركنى زمانا طويلا .

يقول صاحب الظلال : « بهذه الجهالة تلّقى الرجل الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب والمهذب ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر » .

ولم يغضب إبراهيم الحليم ، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه بل قال : لا ينالك منى مكروه ولا أذى ، وذلك لحرمة الأبوة ، ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك وقد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى ، وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله ، وأعبد ربى وحده لا شريك له ، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة ، وأدعو ربى وحده راجيا بسبب دعائى ـ ألا يجعلنى شقيا .

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيدا بل وهب له ذرية وعوضه خيرا فوهب له إسحاق ويعقوب ونسلهم ، والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة فى جو السورة ؛ ولأنها هبة الله التى تعوض إبراهيم عن أهله ودياره وتؤنسه فى وحدته واعتزاله ، فكانوا صادقين فى دعوتهم مسموعى الكلمة فى قومهم ، يؤخذ قولهم بالطاعة والتبجيل .

ثم يمضى السياق مع ذرية إبراهيم مستطردًا مع فرع إسحاق فيذكر موسى وهارون ، ويصف موسى أنه كان مخلصا ، استخلصه الله له ومحضه لدعوته وكان رسولا ، والرسول صاحب دعوة مأمور بإبلاغها للناس والنبى لا يكلف إبلاغ الناس دعوة ، إنما هو فى ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الدعاة إلى الله أن يسلكوا مسلك اللطف واللين فى تبليغ دعوتهم .

٢ ـ ولاية الله ورسوله والمؤمنين والبراءة من الكافرين واجب المسلمين ، ولا يخيب من كان الله وليه .

٣ ـ الترغيب فى حسن الأحدوثة بأن يكون للمرء حسن ثناء بين الناس لما يقدم من جميل .

الجزء السادس عشر — سورة مريم

وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن
رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ (الحزب ٣١)
خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ
وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ
وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

٣٠٩

معانى الكلمات :

نجيا : مناجيا بغير واسطة ملك . **مرضيا** : نال رضا الله .

اجتبينا : اصطفينا . **بكيا** : باكين من خشية الله . **غيا** : خسارا يوم القيامة .

لغوا : كلاما ساقطا لا معنى له . **تقيا** : مطيعا لله ومراقبا له . **نسيا** : ما نسيك ربك يا محمد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر ظل الرحمة الذى يظلل جو الآيات من خلال نعم الله على أنبيائهم.

٢ ـ أن نقف على المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية .

٣ ـ أن نعلم ضرورة الاتعاظ بما نزل بالسابقين من عقاب حتى لا يصيبنا ما أصابهم .

المحتوى التربوى :

يبين الله عز وجل فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذاك ، وتقريبه إليه لدرجة الكلام ، الكلام القريب فى صورة مناجاة ، ونحن لا ندرى كيف كان هذا الكلام ، وكيف أدركه موسى ، أكان صوتا تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنسانى كله ، ولا نعلم كيف أعد الله كيان موسى البشرى لتلقى كلام الله الأزلى ، إنما نؤمن أنه كان ، وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق ، وهو بشر على بشريته ، وكلام الله علوى على علويته ، ومن قبل كان الإنسان إنسانا بنفخة من روح الله .ويذكر بموسى فى مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إليه أن يعينه به ، وظل الرحمة هو الذى يظلل جو السورة كله .

ثم يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، فيذكر إسماعيل أبا العرب ، وينوه من صفات إسماعيل بأنه كان صادق الوعد ، وصدق الوعد صفة كل نبى وكل صالح ، فلا بد أن هذه الصفة كانت بارزة فى إسماعيل بدرجة تستدعى إبرازها والتنويه بها بشكل خاص ، ويذكر السياق من أركان العقيدة التى جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما أهله ، ثم يثبت له أن كان عند ربه مرضيا ، والرضا سمة من سمات هذه السورة البارزة فى جوها وهى شبيهة بسمة الرحمة، وبينهما قرابة .

وأخيرا يختم السياق هذه الإشارات بذكر إدريس ، ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس ، ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم ، وليس من أنبياء بنى إسرائيل فلم يرد ذكره فى كتبهم ، والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا ، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا ، فأعلى قدره ورفع ذكره .

يستعرض السياق أولئك الأنبياء ؛ ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركى العرب أو من مشركى بنى إسرائيل ، فإذا المفارقة شاسعة والهوة عميقة ، والفارق بعيد بين السلف والخلف والسياق يقف فى هذا الاستعراض عند المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية ، فآدم يشمل الجميع ونوح يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين ، ويعقوب يشمل شجرة بنى إسرائيل ، وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم ، صفتهم البارزة أنهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ، ويخرون سجداً وبكيا .

ويقول الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وإن هؤلاء الأنبياء المصطفين والتابعين الأبرار قد صفت نفوسهم واستقامت قلوبهم ، وصغت إلى الحق أفئدتهم فكانوا إذا تليت عليهم آياته فى كتبه الذى أنزلها الرحمن خروا ساجدين باكين ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ سجدًا : جمع ساجد ، وبكيًا جمع باك ، أى أنهم لفرط تأثرهم بآيات الرحمة التى تنزل من عند الرحمن ، ولذا اختير ذلك الوصف ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ فى التعبير عن الذات ، فهم يبكون لشعورهم برحمة الله ، ويسجدون شكرا لله تعالى على ما أنعم ، وإن ذلك كان من شأن الصالحين ، فكان أبو بكر بكَّاءً عند تلاوة القرآن الكريم ، وكان الإمام الشافعى إذا صلى بالناس بكى وبكوا عند تلاوته حتى سمى القارئ البكَّاء ، ومن كان من الصالحين لا تدمع عيناه يبكى قلبه ، وإن ذلك من الوعى الطيب ، إذ يحسّ السامع للتلاوة ، بأنه يسمع الله تعالى ينادى فيرتجف ويقشعر بدنه ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) .

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله ، خلف من بعدهم خلف بعيدون عن الله ، تركوا الصلاة وجحدوها ، واتبعوا شهواتهم واستغرقوا فيها ، فما أشد المفارقة وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء ، ومن ثم كان التهديد لهؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين ، يتهددهم بالغى ، والغى بالشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك .

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمة ، فالتوبة التى تنشئ الإيمان الصالح فتحقق مدلولها الإيجابى الواضح تنجى من ذلك المصير ، فلا يلقى أصحابها غيا ، إنما يدخلون الجنة للإقامة ، الجنة التى وعد الرحمن عباده إياها فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها ، ووعد الله واقع لا يضيع .

ثم يرسم السياق صورة للجنة ومن فيها : فلا فضول فى الحديث ولا ضجة ولا جدال ، وإنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضى ، صوت السلام ، والرزق فى هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كد ، ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد ، فما يليق الطلب ولا القلق فى هذا الجو الراضى الناعم الأمين ، ومن شاء الوراثة ، فالطريق معروف التوبة والإيمان والعمل الصالح ، أما وراثة النسب فلا تجدى .

ويختم هذا الدرس بإعلان الربوبية المطلقة لله ، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تكاليفها ، ونفى الشبيه والنظير ، وتتضافر الروايات على أن قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ مما أمر جبريل عليه السلام أن يقوله للرسول ﷺ ردا على استبطائه للوحى فترة لم يأت فيها جبريل ، فاستوحش نفسه ، واشتاقت للاتصال بالحبيب ، فكلف جبريل أن يقول هذا ، فالله هو الذى يملك كل شىء من أمرنا ، وهو لا ينسى شيئا ، إنما ينزل الوحى عندما تقتضى حكمته أن ينزل .

قال صاحب الأساس : « رأينا أن الحكمة فى إرسال الرسل إما لإرجاع الناس عن الكفر ، وإما للفصل فى اختلافاتهم ، وإما لتجديد حيوية السير إلى الله بالعودة إلى الله ، وبترك الشهوات المحرمة ، وقد كفر الناس قبل بعثة رسول الله ﷺ واختلفوا اختلافات كثيرة ؛ وتركوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، فبعث الله محمدا ﷺ وأنزل معه الكتاب ، فدعا إلى الإيمان ، وحكم فى الاختلاف ، وربى الناس على إقامة الصلوات وترك الشهوات المحرمة » .

ويقول الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وصف الله تعالى الأخلاف الذين انحرفوا بسبب هذا الانحراف ونتيجته ، فقال عز من قائل : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ، وذكر أسباب انحرافهم فحصره فى أمرين أو ذكر أن أكبر أسبابه أمران :

الأمر الأول : أنهم ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، ومعنى إضاعة الصلاة إضاعة الدين ؛ لأنها عمود كل دين ، وكما قال النبى ﷺ «لا دين من غير الصلاة » ، فهى سمة الدين وشعاره ، ومعنى إضاعتها إهمالها ، أو الصلاة من غير إقامتها على وجهها ، أو الصلاة فقدت الخشوع والخضوع ، وهذا لبابها ، أو الإتيان بصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر بل تلابسها .

الأمر الثانى : هو اتباع الشهوات ، فإنه سيطرت الشهوات على النفس ، وصارت سيدا مطاعا انحرف الاعتقاد تبعا لها ، وحينئذ يتخذون إلههم هواهم وكان معبودهم وسرى ذلك إلى كل أعمالهم .

وقد نبه سبحانه إلى النتيجة من ذلك فقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ الغى ضد الرشاد وهو الغواية ، وهى تنكب الطريق المستقيم ، وإن اتباع الشهوات وجعل الأهواء لها السلطان الأكمل سبيل الفساد والغواية ، وبها تنكب الرشاد ، وذلك أن الهدى والعقل نقيضان لا يجتمعان فى قلب واحد ، فإذا كان سلطان الهوى ذهب العقل وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ ﴾ هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل وقوله تعالى : ﴿ يَلْقَوْنَ ﴾ ، أى يجدون أمامهم وهو نتيجة طبيعية لترك الصلاة واتباع الشهوات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ مسؤولية كل إنسان عن أهله ، وضرورة البدء بهم فى الدعوة إلى الخير وإلى عبادة الله .

٢ ـ أهمية الصلاة والزكاة من بين العبادات ، وأنهما يجمعان بين أصول العبادات البدنية والمالية .

٣ ـ التوبة المقبولة هى التى تنشئ الإيمان والعمل الصالح .

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ
هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ
أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن
كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ
وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

٣١٠

معانى الكلمات :

سميا : شبيها .

جثيا : باركين على ركبهم .

لننزعن : لنأخذن .

شيعة : فرقة وجماعة .

عتيا : عصيانا أو جراءة .

صليا : دخولا .

رئيا : منظرا وهيبة .

فليمدد : فليمهل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أن تكاليف العبادة هى تكاليف المثول بين يدى المعبود والثبات فى هذا المرتقى العالى .

٢ ـ أن نقف على مصائر البشر فى مواقف القيامة .

٣ ـ أن نعلم أن أهل العقيدة هم أهل القرب من الله والجزاء الأوفى يوم الحساب .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى إعلان الربوبية لله دون سواه ، فلا ربوبية لغيره ، ولا شرك فى هذا الكون الكبير ، وإذا كان الله هو رب السموات والأرض وما بينهما فينبغى الخضوع له ، والاصطبار على عبادته .

يقول صاحب الظلال : « اعبده واصطبر على تكاليف العبادة ، وهى تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدى المعبود والثبات فى هذا المرتقى العالى ، اعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء والتلقى فى ذلك الأفق العلوى ، إنها مشقة ، مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ،

ومن كل هاتف ، ومن كل التفات ، وإنها مع المشقة للذة لا يعرفها إلا من ذاق ، ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة وإلا بالتجرد لها والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة ، وخالجة بالله ، فهى لا تفشى سرها ولا تمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعا » .

والعبادة فى الإسلام ليست مجرد الشعائر ، إنما هى كل نشاط : كل حركة ، كل خالجة ، كل نية ، كل اتجاه ، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان فى هذا كله إلى الله وحده دون سواه ، مشقة تحتاج إلى اصطبار ، إنه منهج حياة كامل يعيش الإنسان وفقه ، وهو يستشعر فى كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ؛ فيرتفع فى نشاطه كله إلى أفق العبادة والطاهر الوضىء ، وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة ، والله هو الواحد الذى يعبد فى هذا الوجود ، والذى تتجه إليه الفطر والقلوب ، فهل تعرف له نظيرًا ؟ تعالى الله عن السمى والنظير .

ويأتى الدرس الأخير فيمضى فى جدل حول عقائد الشرك وحول إنكار البعث ، ويعرض فى مشاهد القيامة مصائر البشر فى مواقف حية حافلة بالحركة والانفعال ، يشارك فيها الكون كله ؛ وسمواته وأرضه ، إنسه وجنه، مؤمنوه وكافروه .

وينتقل السياق بمشاهده بين الدنيا والآخرة فإذا هما متصلتان ، تعرض المقدمة هنا فى هذه الأرض ، وتعرض نتيجتها هنالك فى العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات مما يلقى فى الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان .

ويبدأ المشهد بذكر ما يقوله الإنسان عن البعث ، ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر فى عصور مختلفة ، فكأنها هى شبهة الإنسان واعتراضه المتكرر فى جميع الأجيال ، وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر.

ويكون التعقيب على هذا الإنكار فيقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله أنهم سيحشرون ، ولن يكونوا وحدهم بل هم والشياطين ، وبينهما صلة التابع والمتبوع والقائد والمقود .

وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثوّ الخزى والمهانة والذلة والضعفة ، وهى صورة رهيبة ، وهذه الجموع التى لا يحصيها العدد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ويلفحها حرها ، وتنتظر فى كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها وهم جاثون على ركبهم فى ذلة وفزع ، وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ،يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتوا وتجبرا ، يتبعه صورة القذف فى النار ، والله يعلم من هم أولى بها صليا فلا يؤخذ أحد جزافا .

إن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب ، فهم يردون فيدنون ويمرون بها ، وهى تتأجج وتتميز وتتلمظ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون ، ثم تكون النجاة لهم فتزحزح عنهم ويبقى أهل الظلم والعدوان.

ومن هذا المشهد إلى مشهد فى الدنيا يتعالى فيه الكفار على المؤمنين ويعيرونهم بفقرهم ، ويعتزون بثرائهم ومظاهرهم وقيمتهم فى عالم الفناء ؛ فهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات الله على عهد الرسول ﷺ ، فيقولون للمؤمنين الفقراء : الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ، أم الفقراء الذين يلتقون حوله أيهم خير مقاما وأحسن نديا ؟ وهذا منطق الأرض ، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا فى كل زمان ومكان .

يقول صاحب الظلال : « وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء ، ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ، وينصرف عنها من يبتغى المطامع والمنافع ، ومن يشتهى الزينة والزخرف ، ومن يطلب المال والمتاع » .

ويعقب السياق على قولة الكافرين التياهين والمتباهين بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين ، على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم ، ولم يعصمهم شىء من الله حين كتب عليهم الهلاك ، ويعقب السياق بتلك اللفتة ، ثم يأمر الرسول ﷺ أن يدعو عليهم فى صورة مباهلة ، بأن من كان من الفريقين فى الضلالة فليزده الله مما هو فيه ، حتى يأتى وعده فى الدنيا أو فى الآخرة ، فإن كانوا يزعمون أنهم أهدى من أتباع محمد ﷺ لأنهم أغنى وأبهى فليكن ، وليدع محمد ربه أن يزيد الضالين من الفريقين ضلالا ، وأن يزيد المهتدين منهما اهتداء ، حتى إذا وقع ما يعدهم من عذاب الضالين فى الدنيا على أيدى المؤمنين أو عذابهم يوم الدين ، فعندئذ سيعرفون أى الفريقين شر مكانا وأضعف جندا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب عبادة الله والصبر عليها حتى الموت .

٢ ـ الله القادر على خلق الناس من عدم ، قادر على إعادتهم وإحيائهم بعد موتهم ؛ ليحاسبهم ويجازيهم على ما عملوا فى هذه الدنيا ؛ فينجى المؤمنين ، ويعذب الكافرين .

٣ ـ متاع الدنيا زائل ، وثواب الله خير وأبقى ؛ فعلينا أن نتخذ هذا المتاع وسيلة لإرضاء الله تعالى .

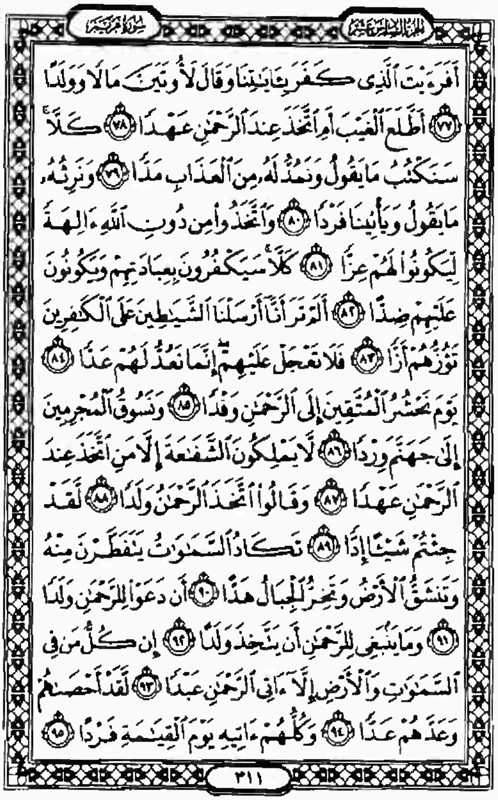
الجزء السادس عشر — سورة مريم
أفرءيت الذى كفر بـٔايـٰتنا وقال لأوتين مالا وولدا
٧٧ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمـٰن عهدا ٧٨ كلا
سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ٧٩ ونرثه
ما يقول ويأتينا فردا ٨٠ واتخذوا من دون الله ءالهة
ليكونوا لهم عزا ٨١ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون
عليهم ضدا ٨٢ ألم تر أنا أرسلنا الشيـٰطين على الكـٰفرين
تؤزهم أزا ٨٣ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ٨٤
يوم نحشر المتقين إلى الرحمـٰن وفدا ٨٥ ونسوق المجرمين
إلى جهنم وردا ٨٦ لا يملكون الشفـٰعة إلا من اتخذ عند
الرحمـٰن عهدا ٨٧ وقالوا اتخذ الرحمـٰن ولدا ٨٨ لقد
جئتم شيـٔا إدا ٨٩ تكاد السمـٰوٰت يتفطرن منه
وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ٩٠ أن دعوا للرحمـٰن ولدا
٩١ وما ينبغى للرحمـٰن أن يتخذ ولدا ٩٢ إن كل من فى
السمـٰوٰت والأرض إلا ءاتى الرحمـٰن عبدا ٩٣ لقد أحصىٰهم
وعدهم عدا ٩٤ وكلهم ءاتيه يوم القيـٰمة فردا ٩٥
٣١١

معانى الكلمات :

نمد : نزيد .

فردا : وحيدا .

عزا : شفعاء وأنصارا .

ضدا : ذلا وهوانا أو خصما .

تؤز : تغرى بالمعاصى .

وفدا : راكبين كما تأتى الوفود إلى الملوك .

وردا : عطاشًا

إدا : منكرا فظيعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن علم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة .

٢ ـ أن نقف على كرامة المتقين ، ومهانة المجرمين .

٣ ـ أن نعلم إحاطة الله بخلقه ومعرفته لعدوهم فلا يغيب عن علمه أحد منهم ، ولا يتخلف عن موقف القيامة فرد منهم ؛ إذ الكل يأتيه فردا .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « العلة الأساسية فى الانحراف : هى الكفر باليوم الآخر ، فإذا أقيمت الحجة على الناس به ، فروا من الحجة ، ورفضوا الإسلام بحجة أن الكفر وأهله أجود عيشا وأعظم جاها ، وهو منطق أعوج ، إذ الغنى والفقر لا يتعلقان بحق وباطل ، فاللص والغشاش والمرابى قد يكونون أكثر الناس مالا وجاها ، فهل يعطى ذلك أفعالهم قيمة عليا ؟ فمنطق الكافرين هذا منطق سفه لا منطق عقل وعلم ، وإذ يبطل الله حجتهم وكلامهم فيما مر ، فإنه سيبطل دعوى أخرى لهم فيما سيأتى ؛ إذ يرى بعضهم أن إمداد الله له فى الدنيا دليل على

كرامته على الله ، ومن ثم فإنه حتى فى حالة وجود يوم آخر ، فإنه يزعم أن له كرامة عند الله فيه ، وبمثل هذا المنطق يعرض عن الإسلام ، ويحارب أهله ويرفض القرآن ».

ومن ثم يستعرض السياق قولة العاص بن وائل نموذجا من تهكم الكفار ؛ واستخفافهم بالبعث ، والقرآن يعجب من أمره ويستنكر ادعاءه الذى رواه البخارى ومسلم وأحمد ، واللفظ له عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلا قنيا وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا ، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت: لا ، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيتك ، فأنزل الله ، ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

فهل اطلع على الغيب فهو يعرف ما هنالك أم كان له عهد عند الله فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقب ، كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، إنما هو يكفر ويسخر ، فالتهديد إذن والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين السافرين فسنكتب ما يقول ، ونسجله ليوم الحساب ، فلا ينسى ولا يقبل المغالطة ، وهو تعبير تصويرى للتهديد ، وإلا فالمغالطة مستحيلة ، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة ، ونزيد له من العذاب ونطيله عليه ولا نقطعه عنه .

ويستمر السياق فى التهديد على طريقة التصوير أيضا ، فسنأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ، وسيأتينا وحده لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند ، مجرداً ضعيفا وحيدا فريدا .

ويستطرد السياق فى استعراض ظواهر الكفر والشرك ، فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة والغلب والنصرة ، وكان فيهم من يعبد الملائكة ، ومن يعبد الجن ، ويستنصرونهم ويتقون بهم ، كلا فسيكفر الملائكة والجن بعبادتهم ، وينكرونها عليهم ويبرؤون إلى الله منهم بالتبرؤ والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليقودونهم إلى المعاصى فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم فى إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم ، فلا تتعجل عليهم ، ولا يضق صدرك بهم ، فإنهم ممهلون إلى أجل قريب ، وكل شىء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود ، والتعبير يصور دقة الحساب تصويرا محسوسا ، فالعد من الذات الإلهية معدود ، وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير ، إن الذى يحس أن رئيسه فى الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش فى قلق وحسبان .. فكيف بالله المنتقم الجبار .

وفى مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة العد والحساب ؛ فأما المؤمنون فقادمون على الرحمن وفدا فى كرامة وحسن استقبال ، وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم وردا كما تساق القطعان ، ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملا صالحا فهو عهد له عند الله يستوفيه ، وقد وعد الله من آمن وعمل صالحا أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ولن يخلف الله وعداً .

ثم يستطرد السياق إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين ، ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات الله ، والمشركون من اليهود : عزير ابن الله ، والمشركون من النصارى : المسيح ابن الله ، فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التى تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره ، هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السموات والأرض والجبال والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق باتخاذ الرحمن ولدا حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع فقد أتوا شيئا عظيما ، ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه ، وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ، وتجافى ما وقر فى ضميره وما استقر فى كيانه ، وتهز القاعدة التى قام عليها ، واطمأن إليها .

وفى وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب : إن كل من فى السموات والأرض إلا يأتى عبدا ، يأتى معبوده خاضعا طائعا ، فلا ولد ولا شريك إنما خلق وعبيد ، وإن الكيان البشرى وهو يتصور مدلول هذا البيان ، فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد ، فعين الله على كل فرد ، وكل فرد يقدم وحيدا لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد ، حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان .

قال الزمخشرى : « كلهم متقلبون فى ملكوته مقهورون بقهره ، وهو مهيمن عليهم محيط بهم ، ويعمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم ، لا يفوته شيء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردًا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ يوم القيامة لا يغنى أحد عن أحد ولا ينفع أحد أحدا .

٢ ـ ضرورة الاتعاظ بما نزل بالسابقين من عقاب حتى لا نصير إلى ما صاروا إليه .

٣ ـ الغيرة على دين الله والدعوة إليه مطلوبة .

سورة مريم
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾
سُورَةُ طه
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
٣١٢

معانى الكلمات :

ودا : مودة .

لدا : شديد الخصومة .

ركزا : صوتا خفيا .

الثرى : التراب .

آنس : أبصر .

قبس : شعلة من نار مأخوذة على رأس عود .

المقدس : المطهر المبارك .

طوى : الوادى المسمى طوى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على محبة الله لأوليائه ممن آمن وعمل صالحا .

٢ ـ أن نتعرف على وظيفة الرسول وحدود تكاليفه .

٣ ـ أن نعلم ما كان من أمر مناجاة الله لموسى عليه السلام .

المحتوى التربوى :

فى وسط الوحدة والوحشة والرهبة ترفرف على المؤمنين ظلال ندية من الود السامى ، ود الرحمن ، والتعبير بالود فى هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروح رضا يلمس النفوس ، وهو ود يشيع فى الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس ، فيمتلئ به الكون كله ويفيض .

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل ،